



17 يناير 2020

إخوان أون لاين - قسم الدعوة

كثيراً ما نستخدم مصطلح الربانية في أدبياتنا، بل وفي أحاديثنا العابرة، وقد غلب علي استخدامنا لهذا المصطلح للدلالة علي إحسان العبادة، فالإنسان الرباني هو الإنسان العابد، الذي تظهر عليه علامات الصلاح والتقوي كأثر من آثار إحسانه للعبادة. بل كثيراً من نقصر معني العبادة المرتبط بالربانية علي العبادات المحضة والشعائر التعبدية؛ فالرباني هو ذلك الإنسان الروحاني الشفاف صاحب الصلة الحسنة مع الله، وكل ما سبق صحيح من صفات الإنسان الرباني، ولكنه في الحقيقة لا يغطي إلا جزءاً من مفهوم الربانية كما وردت في القرآن الكريم.

فأركان الربانية في المفهوم القرآني خمسة: أولها إحسان العبادة وثانيها طلب العلم وتدارسه والتفقه في الدين، وثالثها: التعليم والدعوة وإرشاد المجتمع، ورابعها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخامسها الجهاد في سبيل الله.

فأما الركن الأول للربانية وهو إحسان العبادة فمأخوذ من قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ (آل عمران: من الآية 79). فالربانية التي يتصف بها ويدعو إليها من آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة - وكذلك أتباعهم - هي الإيمان بالله، والتوجه بالعبادة له وحده دون سواه "قيل إن أبا رافع القُرظيَّ والسيد النجرانيَّ قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتريد أن نعبدك رباً فقال عليه السلام معاذ الله أن يُعبد غيرُ الله تعالى وأن تأمر عبادة غيره تعالى فما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني فنزلت الآية، والربانيُّ منسوبٌ إلى الرب بزيادة الألف وهو الكاملُ في العلم والعمل الشديديَّ التمسكُ بطاعة الله عز وجل ودينه" (تفسير أبو السعود، بتصرف).

ولا شك أن الإنسان الرباني المنسوب إلي الله تعالى يعبده عبادة المشاهدة والمراقبة، كما جاء في حديث جبريل «قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإبهه براك» (رواه البخاري ومسلم). فالمشاهدة أن يعبد الله كأنه يراه، والمراقبة أن يعبد الله مستشعراً ومستحضراً نظر الله إليه. ولا شك أن العبادة بهذه الكيفية لها أعظم الأثر علي الإنسان فتجعله شفافاً روحانياً، كما تنعكس علي سلوكه وأخلاقه فيكون من أحسن عباد الله خلقاً وأقومهم شلوفاً.

وأما الركن الثاني والثالث للربانية فهما مرتبطان بالعلم تعلماً وتعلماً، وهما مأخوذان من بقية الآية السابقة أيضاً: قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران: من الآية 79). فقد بينت الآية أن طلب العلم وتعلمه ومدارسته والتفقه في الدين، وتعليم الناس ودعوتهم وإرشادهم إلي الحق والخير من أركان الربانية. ولذلك فقد جعل الإسلام طلب العلم فريضة علي كل مسلم ومسلمة. عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «طلبتُ العلمَ قربةً لله عليه وسلم» (رواه ابن ماجه وصححه الألباني). كما جعل الإسلام العلم طريقاً إلي الجنة. عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة. ومن أبصأ به عمله، لم يُشرع به تسبته» (رواه مسلم). عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: «من يرد الله به خيراً يُققه في الدين» (رواه أحمد وصححه الأرنؤوط). قال الشافعي: «طلبتُ العلمَ أفضلُ من صلاةِ النَّافِلَةِ» (مسند الشافعي). وقال الحسن: «كان الرجل إذا طلب العلمَ لم يلبث أن يرى ذلك في بصره، وتخشعه، ولسانه، ويديه، وصلاته، ورؤيته» (الإتحاف).

أما العلماء فلهم مكانة عظيمة في الإسلام تفوق مكانة العباد والزهاد. عن أبي أمامة الباهلي، قال: ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان أخذهما عابدٌ والآخرُ عالمٌ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فضلُ العالمِ علي العابدِ كفضلِ علي أدناكم» ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ اللهَ وملائكته وأهلَ السمواتِ والأرضِ حنَّي النَّملةِ في جحرها وحنَّي الحوتِ ليصلُّونَ علي مُعلِّمِ النَّاسِ الخيرِ» (رواه الترمذي وصححه الألباني) وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنَّ الملائكةَ لتضعُ أجبتَها رصاً لِبِطالِبِ العِلْمِ، وإِنَّه لَيَسْتَعْفِرُ لِلْعَالِمِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى الْجِبَّتَانِ فِي الْبَحْرِ وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَي الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَي سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِيْنَهُمْ وَلَا دِيْنَارًا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَبْطِ وَافِرٍ» (حسنه الأرنؤوط بمجموع شواهد).

وأما الركن الرابع من أركان الربانية وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فمأخوذ من قوله تعالى في حق بني إسرائيل: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَوْلَا بُنَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (المائدة: 62 - 63). فالربانيون لا يسكتون عن هذا العوج، ولا يصمتون أمام هذا الانحراف، ولكنهم يجهرون بكلمة الحق مهما كانت الظروف، ومهما جلبت عليهم من متاعب، ومهما كلفتهم من أثمان. ولذلك قال الله لهم: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَخُكُّمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ

وَالْإِخْتِبَارُ يَمَا اسْتَحْفِطُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاحْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَسْتُرُوا بِأَيْدِي تَمَنَّا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» (المائدة: 44). فالرَبَانِيُّونَ مُؤْتَمِنُونَ عَلَيَّ حَفِظَ الْوَحْيِ وَبَيَّانَهُ لِلنَّاسِ، فَلَا تَمْنَعُهُمْ خَشْيَةُ كَبِيرٍ أَوْ عَظِيمٍ مِنْ تَوْضِيحِ الْحَقِّ وَالْجَهْرِ بِهِ. وَلِذَلِكَ عِنْدَمَا سَأَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَفْضَلِ الْجِهَادِ قَالَ: «كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ إِمَامٍ جَائِرٍ» (رواه أحمد وصححه الأرنؤوط).

وأما الركن الخامس من أركان الربانية وهو الجهاد في سبيل الله فمأخوذ من قوله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ تَيْبٍ قَاتَلُوا مَعَهُ رِيشُونَ كَثِيرٌ قَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ \* وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ \* فَآتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» (آل عمران: 146 - 148). فقد وصفت الآية الربانيين من أتباع الأنبياء بأنهم مجاهدون في سبيل الله، وأن نفوسهم عصية على الوهن والضعف والاستكانة مهما أصابهم من أذى أو لحق بهم من ضر في سبيل الله، وأنهم مع إقدامهم وجهادهم وثباتهم وصمودهم يداومون على الذكر والدعاء والاستغفار واتهام النفس بالتقصير، ويطلبون من الله أن يغفر لهم ويثبت أقدامهم وينصرهم على عدوهم؛ فهم يتقون بالله أكثر من ثقتهم بأنفسهم، ويعتمدون على الله أكثر من اعتمادهم على عقولهم وسواعدهم، مع بذلك كافة الأسباب، واستفادهم كل ما لديهم من جهد وطاقة، ولذلك كان الجزاء من جنس العمل فلم يؤخر الله عنهم ثواب الدنيا من نصر وغيره ولأجر الآخرة خير ﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

هذه هي الربانية كما جاءت في كتاب الله فمن أراد أن يأخذها بمفهومها الشامل فعليه أن يستجمع أركانها الخمسة: العبادة والعلم والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله. وعلى المرين أن يدركوا هذه الحقيقة فيكون تركيزهم على تكوين فرسان النهار لا يقل عن تركيزهم على تكوين رهبان الليل، واهتمامهم بالعلم تعليماً وتعليماً ودعوة لا يقل عن اهتمامهم بالعبادة والنسك وتعظيم شعائر الله، واهتمامهم بتربية الأفراد على الإيجابية والقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقل عن اهتمامهم باستقامة سلوك الفرد وتميزه في الجانب الإيماني والتعبدي، وتعويد الفرد على المجاهدة وحياة المجاهدين، والعيش بنية الجهاد وإعداد النفس له، لا يقل عن بلوغ مرتبة الإحسان في العبادة.